



"الأخلاق بين الفيلسوف الألماني (كانط)، والعلامة الدكتور محمد عبد الله دراز"

بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي:

"كانط والقضايا الراهنة اليوم: كانط والسلام العالمي"

إعداد

الدكتور / محمد جمال يحيى العزب
دكتورة الفلسفة الإسلامية والتصوف

١٤٤٦ هـ / ٢٠٢٥ م

المستخلص:

يتناول هذا البحث مقارنة تحليلية بين التصوّر الأخلاقي عند الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط، والعلامة الإسلامي الدكتور محمد عبد الله دراز، من خلال قراءة نقدية لمنهجهما في تأسيس الأخلاق. يرى كانط أن الأخلاق نابعة من **العقل الخالص**، وأن الفعل الأخلاقي يجب أن يُمارس بدافع من **الواجب العقلي** فقط، دون النظر إلى النتائج أو العواطف، وهو ما يُعرف بـ"الأمر القطعي". في المقابل، يرى د. دراز أن الأخلاق في الإسلام مستندة إلى **الوحي الإلهي**، لكنها لا تُهمل دور العقل، بل تعتبره أداة لفهم الوحي وتعزيز الإيمان به.

يعرض البحث نقاط الاتفاق بين المفكرين، مثل التأكيد على **عالمية الأخلاق** واستقلالها **عن المصالح الذاتية**، مع إبراز الفروقات الجوهرية في المرجعية والمنهج. ففي حين ينطلق كانط من عقلانيات تجريدية، يجمع دراز بين البعد الإيماني والأخلاقي، مؤسساً ما يمكن تسميته بـ"الفكر الأخلاقي القرآني". وتُعد هذه المقارنة إسهاماً مهماً لفهم كيفية التقاء الفلسفة الغربية بالإسلامية في مباحث الأخلاق.

الكلمات المفتاحية:

كانط، محمد عبد الله دراز، الأخلاق، الأمر القطعي، العقل، الوحي، الفلسفة الإسلامية، الفكر الأخلاقي، نظرية الواجب، الأخلاق القرآنية.

Abstract:

This study presents an analytical comparison between the ethical thought of the German philosopher **Immanuel Kant** and the Islamic scholar **Dr. Muhammad Abdullah Draz**, through a critical reading of their respective approaches to the foundation of morality. Kant asserts that morality stems from **pure reason**, and that moral actions must be carried out solely out of a sense of **duty**, regardless of consequences or emotions—a concept known as the *categorical imperative*. In contrast, Dr. Draz believes that Islamic ethics are rooted in **divine revelation**, while also recognizing the significant role of reason as a tool for understanding and reinforcing faith.

The study highlights points of convergence between the two thinkers, such as the emphasis on the **universality of moral principles** and the **independence of ethics from personal interests**, while also underscoring key differences in **methodology and moral authority**. While Kant relies on abstract rationalism, Draz blends **faith-based morality** with rational thought, laying the groundwork for what may be termed a **Qur'anic ethical framework**. This comparison offers a meaningful contribution to the dialogue between Western and Islamic moral philosophies.

Keywords:

Kant, Muhammad Abdullah Draz, ethics, categorical imperative, reason, revelation, Islamic philosophy, moral thought, duty theory, Qur'anic ethics.

المقدمة

تُعَدُّ الأخلاق من أبرز الموضوعات التي شغلت الفكر الإنساني عبر العصور، إذ ترتبط بسلوك الإنسان، وتشكّل جوهر العلاقة بين الفرد والمجتمع، وبين الإنسان وربه. وقد تناولها الفلاسفة والمفكرون من زوايا متعددة، باحثين عن أصلها، وغايتها، وضابطها. وفي هذا السياق، يبرز كل من الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط، أحد أعمدة الفلسفة الغربية الحديثة، والعلامة الدكتور محمد عبد الله دراز، أحد كبار مفكري الإسلام المعاصرين، اللذين قدّما رؤيتين عميقتين ومتمايزتين لمفهوم الأخلاق.

يهدف هذا البحث إلى مقارنة النظرة الأخلاقية عند كل من كانط ودراز، من حيث الأصول التي يستندان إليها، والغايات التي يسعيان لتحقيقها، والمفاهيم الجوهرية التي يركزان عليها. ومن خلال هذا التحليل، نحاول تسليط الضوء على التلاقي والتباين بين الفلسفة الغربية الحديثة والرؤية الإسلامية في فهم الأخلاق، وما يحمله ذلك من أثر على السلوك الإنساني ونظام القيم في المجتمعات المختلفة.

أولاً: الأخلاق عند إيمانويل كانط:

يُعَدُّ إيمانويل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤) من أبرز فلاسفة العصر الحديث، وقد أسس مذهباً أخلاقياً عقلانياً يعتمد على الإرادة والواجب، بعيداً عن النتائج أو العواطف. في فلسفته، ركّز كانط على النية والواجب كأساس للحكم الأخلاقي، ورفض أن تكون الأخلاق قائمة على المنفعة أو الرغبة.

١ - الواجب كمبدأ أخلاقي:

يرى كانط أن الفعل الأخلاقي هو ما يؤدي بدافع من الواجب فقط، وليس لتحقيق مصلحة أو رغبة شخصية. فالنية هي التي تمنح الفعل قيمته الأخلاقية، وليس نتيجته. ولذلك يقول: "لا يوجد شيء يمكن اعتباره خيراً على نحو مطلق إلا الإرادة الخيرة."

٢ - العقل كمصدر للأخلاق:

يؤمن كانط بأن العقل العملي هو المصدر الأساسي للأوامر الأخلاقية. فالإنسان بعقله يستطيع أن يدرك ما يجب عليه فعله، دون الحاجة إلى وحي أو تقليد. ولهذا السبب، اعتبر الأخلاق كليّة وعالمية، لا تختلف باختلاف الثقافات أو الأديان.

٣ - القانون الأخلاقي الكلي (الأمر القطعي):

صاغ كانط ما يُعرف بـ"الأمر القطعي"، وهو المبدأ الأعلى للأخلاق، ويقول فيه: "تصرف دائماً على نحو يمكنك أن تجعل من سلوكك قانوناً عاماً". أي أن على الإنسان أن يختبر صلاحية فعله عبر تخيل أن الجميع سيتصرفون مثله.

٤ - استقلال الأخلاق عن الدين:

على الرغم من إيمان كانط بوجود الله، إلا أنه فصل الدين عن الأخلاق، معتبراً أن الأخيرة تقوم على العقل وحده، ويجب أن تُمارس لذاتها، وليس طمعاً في ثواب أو خوفاً من عقاب.

ثانياً: الأخلاق عند الدكتور محمد عبد الله دراز:

يُعَدُّ الدكتور محمد عبد الله دراز (١٨٩٤-١٩٥٨) من أبرز علماء الأزهر وفلاسفة الأخلاق في الفكر الإسلامي المعاصر. من أهم أعماله في هذا المجال كتابه الرائد "دستور الأخلاق في القرآن"، الذي يُعَدُّ محاولة متكاملة لتأسيس نظرية أخلاقية إسلامية تعتمد على القرآن كمصدر رئيسي.

١ - الربط بين الأخلاق والدين:

يرى دراز أن الأخلاق لا تتفصل عن الدين، بل إن الدين هو الأساس الذي تُبنى عليه الأخلاق. فالأوامر الأخلاقية في الإسلام نابعة من إرادة الله، موجّهة لفطرة الإنسان، ومحفوظة من التناقض والتغير.

٢ - الضمير كمصدر داخلي:

يعترف دراز بأهمية الضمير كمصدر داخلي يرشد الإنسان نحو الخير، لكنه يصر على أن هذا الضمير بحاجة إلى الوحي ليهذّبه ويضبطه، لأن الاعتماد على الضمير فقط قد يؤدي إلى نسبية الأخلاق.

٣ - شمولية الأخلاق في الإسلام:

يرى دراز أن الأخلاق الإسلامية لا تقتصر على المعاملات، بل تمتد إلى النية والسلوك الفردي والعلاقة مع الله والمجتمع والبيئة، مما يجعلها نظاماً شاملاً ومتكاملاً.

٤ - الدافع الأخلاقي:

الدافع الأخلاقي عند دراز يجمع بين العقل والإيمان؛ فالإنسان يفعل الخير بدافع حب الله وطاعة أوامره، وليس فقط امتثالاً لقاعدة عقلية. وهذا يمنح السلوك الأخلاقي بعداً تعبدياً وروحياً.

ثالثاً: نقاط الاتفاق بين كانط ودراز:

النية أساس الفعل الأخلاقي: كلاهما يرى أن النية الصادقة هي التي تمنح الفعل قيمته.
رفض النفعية: يرفض كل منهما أن تكون الأخلاق قائمة على المنفعة أو النتائج.
عالمية الأخلاق: يؤمن الاثنان بأن القيم الأخلاقية يجب أن تكون شاملة ومطلقة.

رابعاً: نقاط الاختلاف بين كانط ودراز:

المجال	كانط	دراز
مصدر الأخلاق	العقل البشري	الوحي والضمير
الغاية من الأخلاق	أداء الواجب لذاته	طاعة الله وإرضاءه
العلاقة بالدين	الأخلاق مستقلة عن الدين	الأخلاق مرتبطة بالدين جوهرياً
الدافع الأخلاقي	الامتثال لقاعدة عقلية	الإيمان بالله والخضوع له

يقول العلامة الدكتور / محمد عبد الله دراز:

"يستند أي مذهب أخلاقي جدير بهذا الاسم - في نهاية الأمر - على فكرة الإلزام Obligation، القاعدة الأساسية، والمدار، والعنصر النووي الذي يدور حوله كل النظام الأخلاقي، والذي يؤدي فقده إلى سحق جوهر الحكمة العملية ذاته، وفناء ماهيتها، ذلك أنه إذا لم يعد هناك إلزام فلن تكون هناك مسئولية، وإذا عدمت المسئولية فلا يمكن أن تعود العدالة وحينئذ تنفشي الفوضى، ويفسد النظام، وتعم الهمجية، لا في مجال الواقع فحسب، بل في مجال القانون أيضاً، وطبقاً لما يسمى بالمبدأ الأخلاقي.

ومن ناحية أخرى كيف نتصور قاعدة أخلاقية بدون إلزام؟ أليس هذا تناقضاً في المحدود؟ أم أننا نجعل من الضمير مجرد أداة للتقدير الفني؟

ويقرر د/ دراز فيقول: "إن إعجابنا بالقدرة الإلهية أو بعظمة القبة السماوية لا يحملنا على أن نخلق أمثالهما. وشبيه بهذا ما يحدث للفنان عندما يتخيل فكرة عمل يمكن تحقيقه، فإن هذه الفكرة لا تقهره مطلقاً على أن ينفذها، ولكنها تدعوه برفق أن يحققها حين يريد، ومتى أتيح له وقت فراغ، ولو أنها فرضت نفسها على بعضهم، فإنها لا تفرض نفسها على الآخرين بنفس القدر من الضرورة، وهي في كل حال تعبر عن الإحساسات دون أن تصادمها.

أضف إلى ذلك أن أي نقص يرتكب في عمل فني قد يصد الحواس، ولكنه لا يثير الضمائر، ولا يقال: إن مرتكبه قد أحدث عملاً غير أخلاقي.

وأخطر من ذلك أن مصطلحي "الإلزام obligation" و "أخلاق Moral" الواردين في هذا التحليل - يبدوان لنا متنافيين، فيناقض أحدهما الآخر^(١).

"والحق أن الأخلاقية الصحيحة لا تجد هنا مجالها، في إحدى الحالتين أو في الأخرى، فالإنسان قد صُوِّر لنا على أنه لعبة في يد قوة، أيا كانت، فهو مدفوع بالعزيمة، وأخرى محمول بالعاطفة، ولكنه لم يكن مطلقاً شخصية مستقلة، قادرة على المقارنة، والتقويم، والاختيار.

(١) د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، تبصير لتقريب

التراث والدراسات العلمية والترجمة، ٢٠٢٢ م، ط. ١، ص ٢٧ : ٢٩.

ويمدح د/ دراز كانط فيقول: "ولقد أحسن كانط صنعاً - برغم بعض النقص في طريقة تقديمه لنظريته - حين أكد أنه كشف عن مصدر الإلزام الأخلاقي، في تلك المملكة العليا في النفس الإنسانية، والتي توجد مستقلة من الشهوة ومن العالم الخارجي معاً، إذ يقول: "أيها الواجب أيها الاسم الأسمى العظيم .. أي مصدر جدير بك؟ وأين نجد جذر ساقك النبيلة؟ .. لعله لا يكون - على الأقل - سوى ذلك الذي يرفع الإنسان فوق ذاته ... والذي شيده إلى نظام للأشياء، لا يمكن لقوة أن تتصوره سوى قوة الإدراك"^(١).

فإذا ما رددنا نظرية كانط إلى أبسط تعبير عنها، وخلصناها من جميع مظاهر الدقة الشكلية ونزعة التسامي، ونقيناها أيضاً من نزعة التشاؤم، التي اتسمت بها، ومن بعض ما شابها من البرود العاطفي فهي بعد هذا لا تعد من المسلمات فحسب، بل إنها لتتفق تماماً فيما ترى - مع النظرية المستخلصة من القرآن.

فمثلاً ما واجبنا حيال طبيعتنا العاطفية؟ أمن الواجب ألا نستجيب لشيء من شهواتنا، وأن نفرض على أنفسنا الآلام، وألوان القهر والتقشف، وأن نمضي في هذه الطريقة مع البوذية حتى نبلغ مرحلة النرفانا"^(٢).^(٣)

وهنا يقر دراز لكانط فيقول:

"لقد أبصر كانط الصخرة التي تصطدم بها الأخلاق القائمة على الضمير الفردي، والواقع أنه من المستحيل عند بلوغ درجة معينة أن نسن قانوناً يفرض باعتباره ضرورة على كل الضمائر، فلما أضحي باقتناعي من أجل اقتناعك؟ ويبين دراز مركزية سلطة الأخلاق فيقول:

"إن من الضروري اذن أن نلجأ إلى سلطة عليا لحسم الخلاف، ولن يكون الحل بكل تأكيد أن نعترف بهذه السلطة للمجتمع إن اكان الأمر أمر أخلاقية Moralite، لا أمر شرعيه Legalite. وهنا نلمح الدافع السليم الذي حدا بكانت أن يلتمس هذا التشريع من

(1) Kant. Critique de la Raison Pratique, p. 91.

(٢) ومعناها في فلسفة الهنود: إيماء الذات الفردية في الكل دون فقد الوعي.

(٣) د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص ٣٠، ٣١، ٣٤.

سلطة أعلى، تتوفر لها صفتان: الأخلاقية والشمول، وأعتقد أنه واجدها في العقل نفسه، في حבורته الأكثر صفاء وتجريدًا، والذي يحكم جميع الأشياء بقانون عدم التناقض".

- وينقد دراز كانط فيقول هنا:

"ونلاحظ أن كانط نفسه يعترف بعجز نقده عن تحديد الواجبات الإنسانية بخاصة، وهي الواجبات التي يعد تقسيمها من مهمة نظام العلم، لا من مهمة نظام نقد العقل بعامة فإن هذا النظام لا يستتبع أي رجوع إلى الفطرة الإنسانية"^(١).

"لا بد إذن من أن نتوجه وجهة أخرى، فأين نفتش عن ذلكم النور البديع لنهدي ضمائرنا، عندما لا تجد حيثما توجهت غير الظلام؟ وأين نجد ذلك المخلص الذي تعلقت به أنفسنا وقد تقاذفتها الشكوك؟"

فبدلاً من أن نقول العقل المحض Raison, transcendente يجب أن نقول: العقل العلوي "raison Hansendante"^(٢).

- وهنا يسأل دراز نفسه قائلاً:

"عندما أسأل نفسي، وقد استسلمت لأنواري الفطرية، قبل أن أخوض عملاً ما - لكي أعرف واجبي، في موقف يتسم بالوضوح نسبياً، فإن إشارة ضميري لن يكون لها في نظري قيمة القاعدة الأخلاقية إلا إذا اعتقدت أنها تعبر عن الحقيقة الأخلاقية في ذاتها، لا عن حقيقة نسبية بالنظر إلى مشاعري. وكل جهودي في التأمل تهدف إلى مطالعة هذه الحقيقة التي أعتقد أنها مطبوعة في أعماقي، وفي جوهر كل كائن عاقل".

وسأل دراز نفسه مخاطباً:

"ماذا تعني في الواقع هذه القولة: (العقل يمنح نفسه قانونه)؟ هل يبدع العقل القانون؟ أم أنه يتلقاه معداً على أنه جزء من كيانه كما يفرضه على الإرادة؟

وبعبارة أخرى عندما يرجع أشد الناس إلحاداً إلى سلطة العقل فإنه لا يعقل في الواقع سوى الإنصات إلى ذلكم الصوت الإلهي في داخل كل منا دون أن يذكر اسمه وهو ينطق به صراحة عندما يتحدث إلى المؤمن"^(١).

(١) د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص ٣٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٦.

وهنا ينقد دراز كانط فيقول:

"اعتقد كانط أنه يستطيع أن يرد اللاأخلاقي Limmoral إلى ما ينافي المنطق L' Absurde، وإلى اللاعقلي L' Rration وكان قوله: (إن أي مبدأ أخلاقي لا يمكن أن يقوم على هيئة قانون شامل دون أن يؤدي إلى تناقض، سواء في مفهومه ذاته، أو في الإرادة التي تريد رفعه إلى مرتبة الشمول)^(٢).

"أليس واضحاً أن نظرية كانط حتى مع هذا التقييد تظل دائماً غير مثبتة بل نقول: إنها غير قابلة للإثبات أيضاً، مهما تكن قوة الجدل التي يمكن استخدامها"^(٣).

ويطرح دراز عدة تساؤلات:

"هل يستتبع تنازع في الواقع تناقض؟ إنه يريد، ولا يريد إلا أن يكون مخدوعاً، إننا نعتقد أن هذا التعارض الظاهر لم ينشأ إلا عن غموض في معنى اللفظ "يريد"، الذي يؤدي هنا دوراً مزدوجاً علمياً Actif، وعاطفية Affectif، فالواقع أن إرادتنا بالمعنى الحقيقي للكلمة، وهي أنها القدرة على اتخاذ قرار - تستطيع تماماً كما يفعل المولع بالمخاطرة - أن تقر نظاماً عاماً - يكون امتداده قابلاً ليؤثر فيما نطلق عليه اصطلاحاً كلمة "إرادة"، وهي ليست سوى حساسيتنا أو قدرتنا على الرغبة.

والفلسفة هي التساؤل أو التساؤلات الطرح الفلسفي تجده جلياً هنا عند دراز حين يقول: ولنضرب مثلاً لوعده كاذب ونتساءل: ألا يتضمن السماح للآخرين بأن يخدعوا الناس - أن يدعي الكذاب الداهية أن بوسعه أن يفسد أحابيلهم ويفلت من شراكتهم، دون أن يحتاج إلى الخروج على مبدئه؟

يسأل دراز هنا أيضاً فيقول: ولكن سوف يقال لنا ألسنا حين ألغينا الثقة في الكلمة المعطاة قد أتحنا لمبدأ الوعد الكاذب أن يدمر فكرة الوعد ذاتها، وهي التي تفترض إمكان الوثوق بالغير، إن من السهل أن نكشف عن الحيلة التي تسلك بها في الخفاء أفكار كثيرة في فكرة واحدة. وبرغم كل ذلك فإن فكرة الوعد ليست لأجل هذا متناقضة، لا في جوهرها،

(١) د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص ٣٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٤.

ولا في وجودها، ولا في إمكان أن تؤثر على بعض العقول، ما دام في الناس مخدوعون. وإنما يطرأ التناقض في اليقين بنهايتها فنحن على ذلك بعيدون جدًا عن أية ضرورة منطقية^(١).

"لقد أدرك كانط بفضل تعمقه الفكري الملحوظ - الاختلاف الكبير الذي يفصل أساس القاعدة الأخلاقية عن جميع القواعد الأخرى العملية، ويكمن هذا الاختلاف في الفكرة الأرسطية عن "الغاية" و "الوسيلة"^(٢).

وهنا يعترف دراز لكانط بعبقريته فيقول:

"من المعروف أنه - لكي يقاوم هذا الفيلسوف الألماني بعض النظريات التي روضت الأخلاق حين أخضعها لجميع مطالب الحياة الدنيوية - لم يكتفِ الرجل برسم خط فاصل بين فكرة الأخلاق وفكرة الحياة الحسية، بل مضى إلى أبعد من ذلك، وأمعن في البعد، فهو لم يكتفِ بأن جرد مفهوم الواجب من كل تجربة حسية، وكل واقع مادي يمكن أن ينطبق عليه، بل إنه خلصه أيضاً من صفته الخاصة من مادته التكوينية - التي تظهر في هذه القاعدة أو تلك، فلم يبعد له سوى صفته الشكلية، وهي أنه قانون شامل صالح لجميع الإرادات، وقد استخلص من ذلك هذا التعريف للواجب، فهو: "كل سلوك يمكن أن يصاغ في قاعدة عامة دون أن يكون عرضة لنقد العقل أو تسخيفه".

ولقد اعتقد كانط اعتماداً على هذه الصيغة المجردة إلى أقصى حد أنه يستطيع أن يستنبط علم الواجبات الأخلاقية على ما قاله بتام Bentham، أعني: علم الواجبات الحسية الخاص بكل مفهوم عملي، وذلك بتقدير كل سلوك عملي من حيث هو أخلاقي وغير أخلاقي، عن طريق وزنه بذلك الميزان الوحيد، وهو صلاحيته لأن يصبح قانوناً عاماً".

وهنا تسأول آخر لدراز:

"أمشروع من هذا القبيل يمكن أن يتحقق فعلاً؟ وهل أساس هذا البناء ذاته متين بحيث يدعمه؟ إليك من وجهة النظر التي تهما تخطيطاً للفكر الكانتي، ويمكن القول إجمالاً بأنه يتكون في ثلاث مراحل:

(١) د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص ٥٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٦.

أ - إثبات حدث أولي.

ب - تحليل يسمح بالارتقاء إلى أعلى درجات العمومية.

ج - هبوط مرة أخرى لوضع القواعد الأساسية للأخلاق الإنسانية^(١).

وهنا يطرح دراز بعض التساؤلات كعادته كفيلسوف مفكر فيقول:

"فلنختبر، مثلاً، شعور أولئك الذين يرتكبون مخالفات تتفاوت في خطورتها، ضد القانون الأخلاقي: "الطبيب الذي يخدع مريضه ليشفيه، والمحسن الذي يرتكب كذبة بريئة لينقذ حياة، والإنسان المرهف الحس الذي يؤثر أن ينتحر على أن يتحمل عاراً ... " - ألا يعطي هؤلاء لسلوكهم قيمة قانون عام، يجب أن يطبق على جميع الناس الذين يوجدون في نفس الظروف التي وجدوا هم فيها".

* اعتراض لدراز:

"ولنفترض أن إنساناً ما جعل موقفه في الحياة أن يبلغ درجة من الكمال لم يبلغها أحد دونه. فليس التعميم وحده هو الذي يهدم هذه الفكرة، بل إن أقل قدر من التوسع فيها يهدمها تماماً، إذ إن التفوق لن يصبح تفوقاً. فهل من العقل أن نصف هذه الغاية بأنها شر من الناحية الأخلاقية؟"

- وتساؤل آخر:

"واليك مثلاً آخر: التبتل عن الزواج ... ولنترك جيلاً إنسانياً واحداً يفرض على نفسه إلزاماً بهذا التبتل ... إن آخر حي من هذا الجيل سوف يشهد حتماً نهاية الإنسانية، فهل يمكن أن نصف بالإجرام موقف هذا المتبتل، وهو موقف مدحته المسيحية كثيراً؟ وما رأي "كانط" نفسه في هذا؟"

يقول لنا كانط: إنه لم يصل إلى مذهبه الشكلي عن طريق حاجة فلسفية إلى التجريد، أو تقليداً للشكلية المنطقية لدى أرسطو، وإنما على أساس اعتبارات أخلاقية ذات أهمية بالغة، وعن طريق منطق الأخلاقية ذاته؛ لأنه - كما يقول -: إذا كانت القيمة الأخلاقية للعمل لا

(١) د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص ٨٥، ٨٦.

تكمُن في الآثار التي تنتظر منه، ولا في اتفاقه مع ميولنا، بل في علاقته بالقانون ... وإذا كان هذا القانون - من ناحية أخرى - واقعًا مسلمًا للعقل، باعتباره قوة ذات كيان ذاتي^(١).

"وإلى هنا نستطيع أن نكون متفقين مع "كانت" ولكنه يضيف قائلاً: "ولما كنت قد جردت الإرادة من جميع الدوافع والنتائج فلم يبق سوى التمسك بالصيغة العامة للقانون في عمومها، فهي وحدها التي تصلح أن تكون مبدأ للإرادة"^(٢).

وأرى هنا أن العلامة الدكتور دراز يتفق مع الفيلسوف الألماني كانط اتفاقًا وثيقًا.

وافترض آخر لدراز:

"ولنفترض بعكس ذلك أنه تقرر وجوب اختفاء الضعفاء ليفسحوا المجال للأصلح من الناس، للحياة!! إن حكمنا سوف يتغير في الحال ليصبح الصراع الشامل هو الرأي الوحيد الذي يعطيناه رجل الأخلاق".

"الفهم المعكوس لعلاقة الفضيلة بالقانون لا يؤدي إلا إلى تغيير وضع الإرادية الإلهية، بنقلها إلى مجال ميتافيزيقي، بحيث يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الله لا يأمر بشيء لأنه حق في ذاته، بل إن ما يأمر به الله هو حق؛ لأنه أمر به فحسب. فهناك فقط تغيير في المصطلحات، بحيث يقول رجال اللاهوت: "هذا أمر علوي من الله"، يقول كانت: "هذا أمر حتمي من العقل المحض".

"ولا يخطئ أحد في إدراك فكرتنا، فنحن نميز في الشكلية الكانتية جوانب كثيرة، ما دامت تستخدم قانون العقل المحض في نواح متعددة، فهذا القانون مبدأ موضوعي، يحدد السلوك وموضوعاته: "الخير والشر"، وهو في الوقت ذاته مبدأ شخصي "دافع" يوجه الإرادة نحو الطاعة"^(٣).

- وتساؤل آخر لدراز:

"هل من حقنا أن نقول لرئيس أن يعامل من هم أعلى منه رتبة معاملته لمرءوسيه؟ وأن نطلب إلى زوج أن يعامل كل نساء الدنيا كما يعامل زوجته، والعكس؟

(١) د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص ٩٠، ٩١.

(٢) د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص ٩١.

(٣) المصدر السابق ٩٣، ٩٤.

إن كل واجب، إذا تعدى حدوده الخاصة - قد يتوقف عن أن يكون واجباً، ولربما يصير جريمة. فالأمر إذن أمر عمومية نسبية، لا يمكن لامتدادها أن يتحدد إلا تبعاً لطبيعة عناصره التكوينية، وبالقياص إلى مجموعة الظروف المناسبة. وتقسيم الواجبات وتحديداتها هو العمل الجوهرى لعالم الأخلاق بمعنى الكلمة، فكيف نشرع في هذا العمل؟".

"وكيف يتسنى لنحوي قُحٍّ، من حيث كونه كذلك أن يكون قادراً على إعطاء المبررات للمعاني العميقة في المقال، وألوان الأسلوب؟

وإذن، ففي حالة نقص الاستنباط الدقيق؛ لأنه مستحيل في هذه الظروف، نشهد لدى "كانت" محاولة للتقريب تتفاوت في براعتها، بين الشكل والمادة؛ نوعاً من التكليف يهدف إلى تسويق نفس قواعد الأخلاق العامة، بعد قطعها عن روابطها الدينية أو الميتافيزيقية، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى نشهد لديه بعض الآراء الشخصية عن نوع الحياة الفاضلة التي يفضلها الفيلسوف.

إن ضمائر كثيرة مخصصة يمكنها أن تجتمع على الطريقة الكانتية، في رؤية المثل الأعلى الأخلاقي؛ وهو أمر لا نناقشه، ولكننا حين نختبر بعض صيغه الفرعية في علاقتها بمبدئه الأول - تبدو لنا، إما دون رباط ضروري، وإما سقيمة التوافق معه^(١).

"ويبدو أن هذه الملاحظة لم تغب بكاملها عن الفكر الكانتي، وربما كان هذا هو السبب في أنه قيد صيغته، حين طلب معاملة الشخصية الإنسانية على اعتبار أن مفهوم "العناية" لا يقتصر عليها وحدها، بل ينطبق "في الوقت نفسه" على غيرها، ولكن هذه الدقة في التعليل لا تلبث بكل أسف أن تضعف بمجرد أن نصل إلى تحديد الواجب العملي الذي ينبع من هذا الاحترام".

ويتفق دراز مع كانط فيقول:

"ولكننا نرى "كانت" يدافع مع الجميع عن حق الناس في الأمن، والواجب الصارم ألا يعتدي أحد على أجسامهم وأموالهم، كما يحرم الاسترقاق والسخرة في جميع أشكالها. وإذن، فلم نكن بحاجة إلى كل هذه الدقة في التحليل، لنصل في النهاية، إلى ترديد أمور تافهة،

(١) د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص ٩٥.

وأعم من أن يتضمنها المبدأ الذي أعلنه. ألسنا نرى هنا أن النتيجة تتضمن أكثر مما في المقدمات؟ وإذا كان الاحترام يمكن أن يمتد إلى العنصر المحسوس في الإنسان، ويجب أن يكون كذلك، فلماذا نرفض امتداده إلى العنصر المحسوس في مجال آخر؟ ولماذا كان من المسموح به أن نعامل الحيوانات على أنها أشياء، سواء أكنّا نستأنسها أم كنا نذبحها دون تحرج؟

وأما كون تلك الصيغ الفرعية سقيمة التوافق مع المبدأ، فذلك عندما يحظر علينا هذا المبدأ أن نسمح لأي امرئ أن يمس حقوقنا، فإما أن الكلمات قد فقدت مدلولها، وإما أن أي "حق" من حيث هو هو، لا ينشئ "واجبًا" قَبْلَ من يملكه، بل في مواجهة الغير. فإذا كان هذا فعلاً حقي فأنا حر في أن أستمسك به، أو أتنازل عنه لمن أشاء. ولنقرر، بنوع من انفصام الذات، أنني باعتباري "فردًا" يجب أن أدافع عن حقي باعتباري "إنسانًا"، أي: باعتباري أمينًا على هذا المبدأ المقدس، مبدأ الإنسانية. لكنّا إذا تعدينا واجب "العدالة" فهناك واجب "الرحمة"، ألا يتطلب هذا الواجب أيضًا أن يطبق بصورة شاملة؟^(١).

يقول دراز عن الإلزام:

"يرتبط بفكرة الإلزام، ناتجان يستلزم أحدهما الآخر بدوره، ويؤيده، ويدعمه، هما: فكرة المسؤولية، وفكرة الجزاء. والواقع أن هذه الأفكار الثلاثة يأخذ بعضها بحجز بعض، ولا تقبل الانفصام، فإذا ما وجدت الأولى تتابعت الآخرين على إثرها؛ وإذا اختفت، ذهبتا على الفور في أعقابها.

فالإلزام بلا مسؤولية يعني القول بوجود إلزام بلا فرد ملزم، وليس بأقل استحالة من ذلك أن نفترض كائنًا ملزمًا ومسئولًا، بدون أن تجد هذه الصفات ترجمتها وتحققها في "جزاء" مناسب، فإن معنى ذلك تعرية الكلمات من معانيها"^(٢).

"فالعامل اللاإرادي يجب أن يستبعد - بادئ ذي بدء - من مجال المسؤولية، من حيث كان ينقصه مطلقًا هذا العنصر التكويني للشخصية. أعني: الإرادة، فالذي يكبو في

(١) د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص ٩٧.

(٢) د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص ١١٥.

سيره -مثلاً- لا يمكن أن يعتبر مسئولاً، لا عن سقوطه، ولا عن نتائجه المكفرة أو المستطابة، بالنسبة إليه أو إلى الآخرين^(١).

"ولنأخذ على ذلك مثلاً، أنك تخرج لممارسة القنص في إحدى الغابات، أو الصيد في إحدى البحيرات، وتعتقد أنك قد صوبت سلاحك نحو صيد، على حين أنك فعلاً أطلقت النار على إنسان، وتريد أن تصطاد سمكة، فيكون ما أخرجته طفلاً غريباً يفجؤك. فمع أن التماثل حادث في هذه الأعمال من "الناحية المادية" مع الأعمال التي تشكل موضوع القانون، نجد أنها غير متماثلة من "الناحية الكيفية"^(٢).

"قد يقال: إذا كانت هذه هي الأهمية التي تخص بها النية أو القصد، وإذا كانت المسؤولية الأخلاقية دائماً ذات ارتباط بهذه النية أو القصدية، أفلا يستتبع ذلك أن تصبح "النية" في رأيك هي كل "الأخلاقية"، أو كما يعبر "كانت": "إن الشيء الوحيد في العالم الذي هو خير في ذاته هو الإرادة الطيبة"؟

"وأخيراً، فإن هذه النظرية، حين تكون منطقية مع نفسها بكل دقة، تؤدي إلى إلغاء كل تقدم، وإزالة كل تفاوت في القيمة الأخلاقية. فإذا كانت النية الحسنة هي كل الأخلاقية فيجب أن نعامل على قدم المساواة -ضماناً وأعمالاً- جد متباعدة على سلم القيم. ومن ذلك أن أكثر الناس جهلاً، وأكثرهم تعصباً، حين يقع فريسة وهم عضال، فيعتقد أن يماثل إرادته بالشرع -هذا الرجل يحق له - استناداً إلى هذا المنطق - أن يحظى بنفس التقدير الذي يستحقه في نظرنا أكثر الناس حكمه، وأعظمهم استتارة.

بيد أن "كانت" لم يدخل في اعتباره كل هذه الصعوبات؛ لأنه -على وجه التحديد- يلتزم بسلم مجرد، تصبح فيه الفكرة العامة للواجب وحدة دون تنوع، وهو لا يريد أن يكلف نفسه عناء تصور الضمير في واقعه المتعدد، والمحسوس. أي: إن "كانت" لا يأخذ من العنصر الثلاثي للضمير الأخلاقي، وهو: "المعرفة"، و"الإرادة"، و"العمل" - سوى جانب واحد هو: الإرادة"^(٣).

(١) المصدر السابق ١٤١.

(٢) المصدر السابق ١٤٢.

(٣) د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص ١٤٦.

اتفاق الفيلسوفان دراز وكانط:

"ونحن متفقون تمامًا مع كانط فيما يقرره من أن أكثر الأعمال نفعًا، وكذلك أكثرها نزاهة، ليست له قيمة أخلاقية إذا لم تصحبه، بل إذا لم تحدده إرادة الخضوع للقانون، وأن أسوأ الأعمال لا يستتبع مسئولية إذا لم يكن قد خالف القانون عن عمد"^(١).

"لو أننا أصغينا إلى ما يقوله بعض الفلاسفة فلن يكون مجال مطلقًا لإرادة إنسانية حرة، بالمعنى الصحيح، ولقد كتب شوبنهاور schopenhauer يقول: "هناك أناس طيبون، وآخرون خبيثاء، وذلك مثلما يوجد حملان، ونمور. فالأولون يولدون بمشاعر إنسانية، والآخرون يولدون بمشاعر أنانية، وعلم الأخلاق يصف أخلاق الناس، مثلما يصف التاريخ الطبيعي خصائص الحيوانات".

"ويذهب سبينوزا Spinoza إلى حد القول بأن الأعمال الإنسانية، شأن جميع ظواهر الكون، تنتج، وتستتبع بنفس الضرورة المنطقية التي يستتبع بها من جوهر المثلث أن زواياه الثلاث تساوي قائمتين.

وهذا كانط بطل الحرية، الذي جعل منها المسلمة الأساسية للحاسة الأخلاقية، يعلمنا نوعًا من الحتمية الإنسانية، التي لا يحول طابعها المطلق والميتافيزيقي، من أن تتعلق بالصرامة العلمية، إذ يؤكد أننا لو كنا نعرف جميع الظروف والسوابق، فإن أعمال الإنسان يمكن التنبؤ بها بنفس الدقة".

التي يحدد بها كسوف الشمس. وقد كان عليه، لكي ينقذ الحرية، ومعها المسؤولية -أن يخرجها كلية من مجال التجربة، ومن عالم الظواهر، ليحبسهما في عالم مجهول، يراه غير قابل للمعرفة، وهو ما يتساوى عمليًا مع إنكار واقعهما الراهن، حتى لا يبقى منه سوى تذكارات، وأمل ملتبس.

ولم يتردد هيوم Hume في أن يقول هذا بألفاظ مباشرة: "إن شعورنا بالحرية ليس إلا وهمًا.

بيد أن مسئوليتنا عن كل عمل مقصود -على ما يعتقد أنصار الاختيار الحر- هي أمر قطعي، وفي رأيهم: أن الإرادة والحرية مترادفتان"^(١).^(٢)

(١) المصدر السابق ١٤٧.

"لا أحد يضارع مطلقاً "ديكارت"، الذي مد حدود نشاطنا الحر إلى أبعد مدى، لا في مجال العمل فحسب، بل في مجال المعرفة أيضاً. فإرادتنا هي التي تحكم أو تمتع، هي التي تثبت أو تنكّر. وتتجلى هذه الحرية أولاً في الشك المنهجي، أي: في القدرة التي نملكها على الرفض الإرادي لجميع أحكامنا المسبقة، وجميع معارفنا السابقة، الناتجة من حواسنا، أو من استخلاص قياسنا، سواء أكان هذا الشك لكي نصدر على إثره - حكماً بصدقها أو كذبها النهائي، أم لكي نعلق حكماً عليها تعليقاً محضاً مجرداً^{(٣)»(٤)}.

"أولع الحتميون بأن يقدموا لنا الطابع الفطري في إطار صارم إلى أقصى حد، لا يحتوي أية ليونة، أو مرونة، فالميل الطيبة أو الخبيثة التي نجتلبها معنا عند الولادة - هي فطرتنا، فكيف نكون مسئولين عن فطرة ليست صنعتنا، وهي على كل حال ليست صنعتنا الشعورية؟^{(٥)»(٦)}.

"يلتقي من طريق أخرى "برجسون" مع "كانت"، فكلاهما يقرر عجز ذاتنا التجريبية والشعورية عن أن تفعل شيئاً سوى تلقي عملها جاهزاً من ذات أخرى، أطلق عليها أحدهما: الذات الأساسية، وأطلق عليها الآخر: الذات الماهية المعقولة moi noumenal وكل ما يفرق بينهما في هذا المجال أن برجسون يضع هذه القدرة في واقع محسوس، وقد كان بحكم إخلاصه لنزعتة البيولوجية يدافع عن تلقائية "الدفعة الحيوية" في نموها الطبيعي، الذي تتحدى به جميع التدبيرات المحسوسة^(٧).

"ولعل ليبنز leibniz يقول لنا:

(١) د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص ١٤٨.

(٢) قال ديكارت في "الإجابات على الاعتراضات الثالثة": "إن الإرادة والحرية ليستا سوى شيء واحد".

(٣) انظر: descartes. Premiere meditation

(٤) د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص ١٤٩.

(٥) ليفي بريل la responsabilite, chap. III & II

(٦) د. محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، ص ١٥٠.

(٧) المصدر السابق، ص ١٦١.

"أليس قانونًا شاملاً أن كل قوة تعمل حيث تجد مزيدًا من اليسر، وقليلًا من المقاومة؟
... فلماذا تريدون أن تجعلوا من القوة الأخلاقية استثناء من القاعدة؟"^(١).

(١) المصدر السابق، ص ١٦١.

الخاتمة

إن البحث في فلسفة الأخلاق عند كلٍّ من الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط، والعلامة الدكتور محمد عبد الله دراز، يكشف عن عمق في الرؤية وثراء في الطرح، كلٌّ منهما انطلق من منظومة فكرية مختلفة، إلا أنهما التقيا في نقاط جوهرية تعكس القواسم المشتركة بين الفلسفة والعقيدة في سعي الإنسان نحو السلوك القويم.

وقد أظهرت المقارنة أن كانط أسس نظرية أخلاقية عقلانية محضة، تركز على الإرادة والواجب والنية، وتفصل الأخلاق عن الدين، فيما انطلق الدكتور دراز من منظور إسلامي يربط بين الأخلاق والوحي، ويؤمن بأن الدافع الديني والإيماني هو أساس الفعل الأخلاقي الصحيح.

أهم النتائج:

- ١ - النية كمرتكز مشترك: اعتبر كلا المفكرين النية هي العنصر الأساسي في تقييم الفعل الأخلاقي، وهو ما يشير إلى عمق تأثير البُعد الداخلي في التوجيه السلوكي.
 - ٢ - رفض المذهب النفعي: اتفقا على أن الأخلاق لا تُقاس بالمصلحة أو النتائج، بل بصدق الدافع ونقاء الضمير أو الالتزام العقلي.
 - ٣ - الاختلاف في المرجعية: بينما يرى كانط أن العقل وحده كافٍ لتحديد الخير والشر، فإن دراز يؤمن بأن العقل لا يمكن أن يستقل في التشريع الأخلاقي دون هداية الوحي.
 - ٤ - الدين كحافز أخلاقي: تُظهر رؤية دراز شمولية في المنظور الأخلاقي، حيث تمتزج العبادة بالسلوك، ويصبح التوجه الأخلاقي جزءاً من الالتزام الديني.
 - ٥ - الأخلاق الكونية: كلا الرؤيتين تؤمنان بإمكانية وجود منظومة أخلاقية عالمية، مما يفتح مجالاً لحوار حضاري بين الثقافات المختلفة على أساس مشترك من القيم.
- وبناءً على ما سبق، يمكن القول إن الرؤية الأخلاقية الإسلامية، كما قدّمها الدكتور دراز، تتسم بشمولية أعمق وأفق أوسع، إذ تجمع بين العقل والوحي، وتوفّر دافعاً ذاتياً وروحياً يدفع الإنسان إلى الالتزام الأخلاقي، لا كواجب فقط، بل كقربى لله، وسعي نحو الكمال الإنساني.

فهرس المحتويات

٢	المستخلص:
٣	Abstract
٤	المقدمة
٤	أولاً: الأخلاق عند إيمانويل كانط:
٥	ثانياً: الأخلاق عند الدكتور محمد عبد الله دراز:
٦	ثالثاً: نقاط الاتفاق بين كانط ودراز:
٦	رابعاً: نقاط الاختلاف بين كانط ودراز:
٢٠	الخاتمة
٢٠	أهم النتائج:
٢١	فهرس المحتويات